ذكرى

ثلاثون عاماً على رحيله... ناجي العلي الريشة

يوم 29 (آب) أغسطس، إنطفأ ناجي العلي (1937 ـ 1987) متأثراً بجراحه في مستشفى «تشارينغ كروس»، في العاصمة البريطانيّة. هذا المبدع الفلسطيني المتمرّد الذي شكلت تجربته منعطفاً في فن الكاريكاتور العربي، وصاغ برسومه وعينا الجماعي في مرحلة حاسمة من الصراع ضد إسرائيل والاستعمار والرجعيّات العربيّة، رحل متأثراً بجراحه، بعد شهر من اطلاق النار عليه، في أحد شوارع لندن، بكاتم صوت تعددت الأصابع الضاغطة على زناده. وهو يرقد اليوم في مقبرة «بروك وود» الإسلامية في لندن، تحت الرقم 230191، إذ حالت الظروف تنفيذ وصيّته بأن يدفن في مخيم عين الحلوة، المكان الذي انطلق منه بعدما اكتشفه غسان كنفاني هناك، لينشر أولى لوحاته في مجلة «الحرية» عام 1961. لقد أرعب ناجي الحكام العرب المتخاذلين، بقدر ما أوجع العدو الاسرائيلي وعرّى الأنظمة الخائنة، المستبدة، المتآمرة، التي قادتنا الى الهزيمة. الفنان النحيل الساخر الذي جمع الموهبة والمراس والثقافة إلى الرؤيا الثاقبة والوعي الراديكالي، كان شاهداً، في تغريبته بين بيروت والكويت ولندن، على المنعطفات الحاسمة للقضية الفلسطينية. واكب الأحداث الكبرى، والمعارك، والمواجهات المصيريّة، بعيني حنظلة ابن العشر سنوات الذي لن يكبر إلا حين يعود إلى قريته الشجرة في الجليل، في فلسطين المحتلّة. ثلاثون عاماً بعد استشهاده، ما زال نتاجه وفكره حاضرين أكثر من أي وقت

أنا عربي يا جحش!

بيار أبي صعب

أيّاماً قليلة قبل موعد الذكرى الثلاثين لاستشهاد ناجي العلي، خطر لشخصيّة بارزة في المشهد السياسي اللبناني، أن توجّه إهانة جديدة إلى الشعب الفلسطيني، ماضية في ممارسة تلك الهواية التي تميّز اليمين الانعزالي في بلد العسل والبخور، بين «رهاب الغريب» و«الهويّة المذعورة» و«السيادة المستهدفة». المغرّد زعيم تيّار أساسي في البلد، متحالف مع المقاومة تحديداً، نشر على حسابه في أحد مواقع التواصل الإجتماعي صورة بالأبيض والأسود لمخيّم عين الحلوة «في أوّل الستينيات»، ويبدو كناية عن مجموعة خيم منصوبة في خطوط متوازية، فوق أرض بور عند أسفل تلّة، يفترض أنّها اللبنات الأولى لمخيّم اللاجئين المعروف في الجنوب اللبناني. وأرفقها بهذا التعليق: «ما تقبلوا بأي مخيّم يا لبنانيّي #ليبقى_إلنا_وطن». طبعاً ليس هدف هذا الموقف البليد سياسيّاً، والمشبوه أخلاقيّاً ووطنيّاً، سوى التجارة بـ «الخوف»، ومحاولة اقناع الناس (الفئة التي يتنافس عليها مع خصوم/حلفاء أسوأ منه) بأن «الخطر» الذي يحدّق بهم، مصدره طيف «الغريب» الطالع من مسرحيّة للأخوين رحباني، لا مجارير النظام الطائفي الاقطاعي المنهار الذي تتناهشه طبقة مافيويّة، جاهزة لكل المساومات على الكرامة الوطنيّة، من أجل ثرواتها وامتيازاتها... نظام فاسد بائس، تجدر الإشارة إلى أن الفارس «الاصلاحي» الخائف على «وطن ـ إلنا» و«اللبناني»، تمركز فيه بنجاح ملحوظ، وبات شريكاً أساسيّاً في اللعبة الموبوءة.

بعد يوم من تغريدة «مهووس عين الحلوة»، وعبر برنامج تلفزيوني مرتّب بعناية على خلفيّة أيديولوجيّة وبأجندة سياسية واضحة، لاقاه Zorro على «دبابة اسرائيلية» «لتحرير لبنان من الفلسطينيين والسوريين». و«زورو» هذا أحد «نواب الشعب اللبناني»، وابن زعيم «سيادي» آخر باع روحه للعدو الصهيوني. هكذا اكتملت الجوقة في زمن الربيع العربي المسرطن! تلك الجوقة التي يعرفها ناجي جيّداً: «إنت مسلم أو مسيحي، سنّي أو شيعي، درزي أو علوي، قبطي أو ماروني، روم كثوليك أو روم أرثـ... ؟»، يسأل القزم السمين، البلا عنق، بالبذلة والكرافات، مواطناً معدماً جالساً على برميل فارغ، في أحد رسومه الشهيرة. فيجيبه هذا الأخير: «أنا عربي يا جحش»! لقحوا أطفالكم برسوم ناجي العلي.

مخيّم عين الحلوة المحاصر اليوم بنيران مجموعات محصورة من المرتزقة والتكفيريين والموتورين لا تمثّل سكانه، ولا تخدم مصالحهم، ولا تؤمن بقضيّة فلسطين، هو جزء من تركيبة وطننا ومجتمعنا، ويعيش فيه أهلنا، لا جحافل الغرباء الذين «أخذوا مكاننا» كما يخيّل للانعزاليين الجدد. مخيّم عين الحلوة هو المكان الذين انطلق منه ناجي العلي في تغريبته الفريدة التي غيّرت مسار الكاريكاتور العربي، ولعبت دوراً حاسماً في وعينا السياسي والثقافي والاجتماعي. «عين الحلوة» رسمه ناجي مراراً، وأشهر الرسمات تلك التي تجسّد رأساً عملاقاً لامرأة بالطرحة الفلسطينيّة، تنهمر من عينها الدموع، فيما الجندي الاسرائيلي يقف كالحشرة عند سفحها. عين الحلوة؟ هنا كان ناجي العلي قد أوصى أن يدفن، على مرمى حجر من فلسطين، لولا وعورة الواقع التي أبقته سجين مقبرة باردة، في الأرض الغريبة. سيبقى المخيّم مكاناً عالي الرمزيّة، غالياً على قلوب اللبنانيين وجزءاً من وجدانهم. وكل محاولات أبلسته، عمداً أو عن جهل وتعصّب، وتحميله أخطائنا وذنوب نظامنا المريض، لا يمكن إلا أن تصب في مصلحة أفيخاي وشركائه.

ناجي العلي خرج من المخيّم، لكن روحه بقيت هناك. صار أشهر الفنانين العرب، وكانت الأمّة تصحو كلّ صباح على غضبه وصراخه، على نقده اللاذع واتهاماته المباشرة وتعليقاته المُرّة، على قراءته السياسية ورؤياه الثاقبة لجوهر الصراع، وحتميّة المواجهة مع العدو الاسرائيلي ورعاته الغربيين وخدمه العرب. كان يرسم بالسكين وجعاً على شكل الوطن الكبير، في مكان ما بين جورج غروس ورينيه ماغريت. الفنّان الملتزم جسّد الحكام والأسياد العرب بكروشهم المقيتة، وابن الشعب الصبور بملابسه المرقّعة، والمرأة العربيّة التي تختصر العذابات والآمال، والفدائي بالكوفيّة والبندقيّة الذي يشكّل أفقنا الوحيد... كان فنّه الثوري مطعّماً بكلام كثير، شاعري أحياناً، وبلمسات سريالية مدهشة. كان صادقاً وبسيطاً وواضحاً. لم يرحم أحداً، لا ياسر عرفات ولا محمود درويش. كان صدامياً وشرساً وعنيداً ولا يهادن، حتى حين دخل جنود الاحتلال بيروت، ليعودوا فيهربوا منها كالجرذان. كان وحده فعالاً أكثر من كل الأدبيّات الثوريّة. هذا يفسّر قوّة حضوره اليوم لدى الأجيال الجديدة، من خلال صنوه حنظلة غالباً، على القمصان والجدران وشاشات العالم الافتراضي.

يفرض ناجي نفسه الآن، كما لم يفعل يوماً، وقد بلغ الصراع أوجه مع العدو الإسرائيلي، وبتنا على خطوات قليلة من تحقيق حلمه بالعودة إلى أرض فلسطين. ناجي الملاذ، والأيقونة، والمرجع. ناجي «المثقف المعترِك» بتعبير أستاذه غسان كنفاني، والمبدع الذي لم يهادن حين هادن الآخرون. نستجير به، في هذه الأزمنة العصيبة، الحاسمة. صحيح هناك من تخاذل وتعب واستقال أو تاه ببساطة وضل طريقه... هناك من باع وساوم وتنازل ونخرته الجرثومة المذهبية البغيضة... هناك من غيّر موقعه، وبقي محتفظاً بدمغة المناضل الثوري! لكن أبناء ناجي وورثته كثر، على اتساع رقعة العالم العربي والمنافي وبلاد الشتات الواسعة. حين ضاع بعضنا في سراب «أوسلو» وغرق في متاهاتها، بقي ناجي يحرك ريشته كالمبضع في ضمائرنا. كان الفنان الرائي يعرف تماماً أن العدو الاسرائيلي لا يفهم إلا لغة واحدة، هي لغة الفدائيين، وأن الكفاح المسلّح وحده يشق طريق العودة إلى فلسطين.

بعد أيّام ثلاثة، تحل الذكرى الثلاثون لسقوط ناجي العلي. سقوطه بكاتم صوت مجازي يجمع بين الرجعيّة والاستبداد والتخاذل من الجانب العربي، والهمجيّة الاسرائيلية بحماية الديمقراطيات الكبرى من الجانب الغربي. أليس هذا الوحش الأسطوري المتعدد الرؤوس الذي أمضى ناجي العمر ينازله بالريشة، ويدير له إصبعه الوسطى؟ إسألوا اليوم هؤلاء القتلة: إن فناناً مثل ناجي العلي لا يملك ترف الموت، ما دامت المعركة مستمرّة حتى النصر.

معجزة ناجي... عبقرية فل

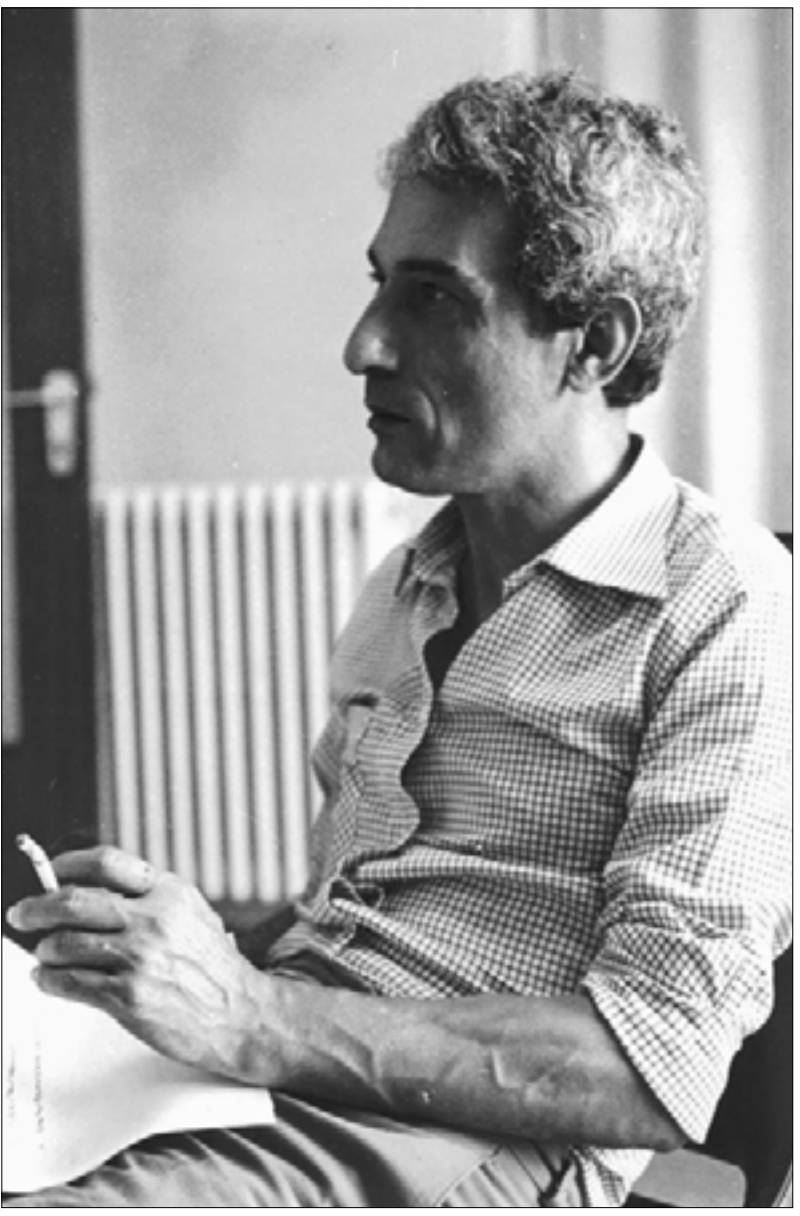

سيف دعنا*

«أنجاد أمجاد، ذوو ألسِنَة حداد». دَعْفَل الشيباني في وصف آل البيت: من رسالة الجاحظ «في علي بن أبي طالب وآله من بني هاشم»
«كان أعظم الناس في عيني، وكان رأس ما أعظمه عندي صغر الدنيا في عينه»

ابن المقفع: «الدرة اليتيمة»

لمن غنيت يا كاسترو إلفيس؟ سأل شاعر تشيلي الفذ بابلو نيرودا في قصيدته عن شاعر البرازيل العظيم؟[1] «للمستعبدين على متن سفن الجحيم»، أجاب إلفيس: «لأبطال العالم الجديد». كان كاسترو إلفيس «شاعر المستعبدين» بحق، وشاعر المقاومة والتمرد على العبودية بجدارة. كان شاعراً فذاً بقضية واحدة فقط (إلغاء العبودية)، لكن قضيته حينها كانت قضية العالم أجمع، وليس البرازيل فقط. كانت أم كل القضايا في عصره، تختصر كل ما عداها ولا يختصرها شيء. لم يكتب عن الحب والأزهار والطبيعة - «إنها لجريمة حقاً»، قال برتولد بريخت مرة، «أن تتحدث عن الأزهار الجميلة حين يكون هناك بشر يُقتلون». فحين كتب إلفيس (قصيدة «القرن») لأهله في البرازيل، ولكل من كان يقطن الإمبراطورية البرتغالية، يحذرهم: «مليون قرن من الزمن ينظر إليكم»، كان يعكس حساً تاريخياً وسياسياً فذاً لم يعرفه أي شاعر آخر حينها. فعدا كل العبقرية والخيال الشعري المذهل والخصب، كان الفيس يعرف أن العالم على وشك الانقلاب رأساً على عقب، والأهم، كان يعرف (وربما كان الوحيد بين كل شعراء أميركا اللاتينية حينها) أن قضيته الكبرى، «إلغاء العبودية»، تحمل في ثناياها بذور تغيير العالم. كان يرى الأفق ويرى المستقبل (قصيدة «أميركا») كما لم يره أحد غيره من الشعراء، لهذا كان المستعبدون في شعره فقط هم «أبطال العالم الجدد» و«أبطال العالم الجديد».

لم يكن إلفيس شاعراً فذاً فقط، أو حتى مناضلاً عظيماً أيضاً: رجل واحد ووحيد يحمل في بلده لواء قضية العالم الأولى والأهم حينها و«يفرضها على أجندات السياسيين» وينتصر[2]. رجل واحد ووحيد يصبح صوت كل المضطهدين والمستعبدين في بلاده وينتصر (لم ينشر شعره في دواوين حتى يقرأها أبناء النخب وطلبة الجامعات. كان يقرأ شعره للعمال والفقراء والمستعبدين في الحقول وفي الشوارع وعلى أرصفة الموانئ، ولم تنشر في دواوين إلا بعد وفاته). كان إلفيس فوق كل ذلك «الأعجوبة» الفذة التي أنتجتها عبقرية الشعب البرازيلي في مقابل وحشية العبودية التي كانت «تسحق روح البشر»، كما كتب الروائي البرازيلي جورجي أمادو: «وفي أحد الأيام، ابتدع الشعب الأسود في البرازيل، المستعبد الشقي، أعجوبة كاسترو الفيس الشعرية. لقد كان هذا شعباً لا يستطيع الكلام، فجعل يفتش عن صوت ليعبر بواسطته عن أفكاره. وأنتج أجمل الأصوات»[3]

أما عندنا، فلقد تجلت عبقرية فلسطين وعبقرية شعبها وتاريخها وثقافتها وعبقرية كفاح أبطالها في أعجوبة واحدة اسمها ناجي العلي، وحده دون سواه. فكل ما عداه من شعراء ومفكرين ومثقفين وفنانين وسياسيين وقادة «كانت صفاتهم أكبر من ذواتهم»، وكانت فلسطين وقضيتها هي من أعطت لهم «وزناً فوق وزنهم». حتى محمود درويش اعترف بذلك في إجابته على سؤال الناقد العربي الفذ منير العكش: «تصور أنك وُلدت في مكان آخر غير الوطن المحتل، ألن يكون لك وزن آخر في الشعر العربي؟». هذا لا يعني أن محمود درويش ليس شاعراً استثنائياً يندر تكرار موهبته وصفاته الشعرية. لكن الشعر «كان ولا يزال الوجه الأكثر نضرة وإشراقاً بين كل نشاطاتنا الثقافية» العربية. والأهم، عندنا نحن العرب، يبقى «الشعر وحده هو نتاجنا الإبداعي الذي يتسم بتواتر لا انقطاع فيه... استمرار لمسيرة تاريخية ما زالت تحمل حقائبها وتسافر». لهذا يقول درويش: «أنني أطمح إلى أن اصدق بأن الصدفة لم تخلقني وحدها، ولكنها عجلت عمر وصولي الى الناس. لقد سهلت علي عملية تقديم نفسي وتنميتي. وهنا نلاحظ مفارقة غريبة: انني مدين للمصادفة ولكنني متمرد عليها»[4]

إلا ناجي العلي. فلم تكن صفة ناجي المبدع والفنان أبداً أكبر من ذاته في أي لحظة على الإطلاق. فلقد كان الأول، وكان الأفضل وكان الأكثر إبداعاً بما لا يقاس. كان الأكثر عبقرية والأكثر موهبة بلا منافس، بل وبهامش هائل يفصله عن الجميع في النوع الفني الجديد (على العرب وعلى مجال السياسة) الذي حوّله لسلاح فتاك في معركة